ملامح الإبداع
في المديح النبوي للشعر الحساني

د. خديجة اوواه
باحثة في الأدب والتربية، كلية الآداب، جامعة عبد المالك السعدي، طنجة
د. وفاء اوواه
باحثة في السوسيولوجيا والتواصل، كلية الآداب، جامعة القاضي عياض، مراكش
المغرب

مقدمة

من خلال القراءة الدلالية المتأنية للقصائد (الطلع) المتعلقة بالمنجز المديحي الحساني المدروس، فهي تحمل دلالات كبرى من حيث اختيار الوزن والقافية، فهذه البحور (البتوت) المستخدمة عادة تتعلق بالعظماء والأمراء وفي أغراض المدح خاصة، وهو قمة في الأدب الشعبي يقطع كما يقول المثل قول كل خطيب، يبدأ الشاعر باستنفار كافة المؤمنين دون اعتبار للسن والمكانة والقريحة الشعرية أو الموهبة الفنية، للإشادة بخصال النبي صلى الله عليه وسلم. فوجوه القول بادية للعيان تحتاج استقصاء واقتفاء لأثره الشريف فهو في الخير أمنير: أي مرشد ومسدد لخطى القوم من التيه، ولا بأس إن تزاحمنا على حوض السقاية لكي نحصي جمعا صفاته المؤتلفة لا المختلفة مثل طرائف الإبل (المتدارس في دلالته الشعبية هو المجتمع بانسجام وتآلف).

وأن نبدع حتى نأتي بما لم يأت به الغير، فكيف لمن خُلُقه القرآن أن تنتهي عجائبه، لين في غير ضعف وشدة في عنف، رحمة بالمساكين والطامعين، وشدة على أعداء الدين (العين الحمراء علامة الوعيد والتهديد) وكان الصحابة (النكر: المختارين بعناية) خير معين له في أبواب الخير ومحاسن الأخلاق، وتدبير المصالح المختلفة .

ويبدو أن المعجم الشعري ينبجس بالصور المواكبة لحياته الشريفة، بدءا من تغير أحوال حليمة السعدية من العسر إلى اليسر، ومن الشدة إلى الرخاء، وبالخصال التي عرف بها الأمين من السمعة الطيبة، حتى التقائه ببحيرا الراهب، وعودته وخوف عمه أبي طالب اليهود تظهر الصورة المقدمة كفار قريش والحجاز، في صورة كلاب تبحث بأنوفها عن كل خبر جديد عن النبي بسوء نية وخبث.

ثم يذكر بناءه بخديجة رضي الله عنها، وصداقها بعشرين من الإبل، (ترزم وهو صوت الإبل ما دون الحنين).

ثم تظهر الصور في تسلسل تاريخي يتبع مراحل النبوة والبعثة، واستقواء الاسلام تدريجيا بالأنصار الجدد، وتكثر هنا الصيغ الصرفية (مسترسق، متبلق، مسلق إلخ) التي تفيد السياق قوة وصرامة تناسب عظمة الموقف وهول التاريخ. لكن هذا التسلسل يكشف عن تقديم المداحين لعلي رضوان الله عليه صاحب السيف.

ويمكن أن نقارب ظاهرة الإبداع على ضوء المنجز المديحي النبوي الحساني المدروس من خلال مقومات وأبعاد:

المبحث الأول: البعد الشعوري:

بالنظر إلى الرابطة الوثيقة بين الإبداع الأدبي وعواطف المبدع، فمن السائغ أن يستعير الباحث أدواته المنهجية لتحليل السلوك البشري، بتأكيد أن كل سلوك وراءه دافع معين.

والحديث عن القيم الشعورية التفات إلى الدوافع التي تحرك الشاعر إلى ممارسة سلوك الإبداع؛ فالعمل الأدبي "تعتبر عن تجربة شعورية في صورة موحية"[1]. وكان أفلاطون لا يعتد بالشعر "إلا إذا كان صادرا عن عاطفة مشبوهة وإلهام يعتري الشاعر فيه ما يشبه نشوة الصوفية، أو نشوة النبوة، أو وَجْد الحب"[2].

ومعنى ذلك أن الحياة الشعورية هي روح الإبداع الفني؛ ففهم خلفياتها ومكوناتها يفتح الطريق إلى فهم أبعاد العمل الأدبي؛ ومن هنا كان المدخل الطبيعي للتوغل في النص الشعوري هو دراسة التجربة الشعورية التي كانت وراء إنشائه.

يقول محمد غنيمي هلال في معرض تحديد دلالة التجربة الشعرية: "نقصد بالتجربة الشعرية الصورة الكاملة النفسية أو الكونية التي يصورها الشاعر حين يفكر في أمر من الأمور تفكير يَنِم عن عميق شعوره وإحساسه"[3]. ومعنى ذلك أن التجربة الشعرية عنصر أصيل من عناصر الشعر تدور فحواها حول الإحساس والمعايشة والصياغة؛ ومن هنا يذهب بعض النقاد إلى أن التجربة الشعرية "معايشة حقيقية لإحساس معين بتملك الشاعر أو الأديب، فيدفع به إلى الخَلق الفني، فهي على هذا النحو صياغة فنية لتجربة إنسانية ناتجة عن معاناة حقيقية"[4]. والمعايشة الوجدانية لواقعة معينة تصبح ـ من هذا المنظور ـ مرحلة أساسية من مراحل نمو التجربة الإبداعية في نفس الشاعر وإن لم تكن كافية لبناء تجربة متكاملة. "وبديهي أن معايشة إحساس معين لا تعد تجربة إلا إذا تحققت فعليا في عمل فني"[5]. فالتجربة على ضوء هذا الاعتبار عمل فني فيه صدق الإحساس والاقتناع بموضوع التجربة، وفيه عمق الإخلاص الفني، و"إفضاء بذات النفس، بالحقيقة كما هي في خواطر الشاعر وتفكيره، في إخلاص يشبه إخلاص الصوفي لعقيدته"[6]؛ فالشعر يجب ن يكون "وليد معاناة نفسية، ولعل قدر هذه المعاناة ومعايشتها تقاس جودة العمل من رداءته، وصدقه من زيفه"[7] مع العلم بأن المعايشة المقصودة هنا لا تكون بالضرورة معايشة واقعية؛ فالشاعر الذي يتمتع بخصوبة الخيال، ودقة الملاحظة "يستطيع أن يخلق بخياله تجارب قد تكون أعمق صدقا، وأكثر غنى من واقع الحياة"[8].

وها هنا يجب التمييز بين نوعين من الصدق: الصدق الفني، والصدق الواقعي؛ فالأول هو "أصالة الكاتب في تعبيره، ورجوعه إلى نفسه، لا إلى العبارات التقليدية المحفوظة"[9]. والثاني هو القدرة على وصف دقائق الواقع "كما يراها الشاعر، أو كما يشعر بها"[10]. وليس المقصود بالصدق المذكور آنفا أن سكون الشاعر قد عايش بنفسه وقائع التجربة كما يفسرها أصحاب الاتجاه الضيق[11] الذين يفرضون على المبدع أن يمارس الواقعة التي تولد منها التجربة ممارسة فعلية؛ لكي يصح له التعبير عنها "بل يكفي أن يكون الشاعر قد لاحظها، وعرف بفكره عناصرها، وآمن بها، ودبت في نفسه حُمَيَّاها"[12]. وقد حاول النقاد العرب القدامى أن يقدموا تفسيرا خرافيا عن هذه المعاناة التي تشبه المخاض، فتحدثوا عن شياطين الشعر؛ فقد "كان العرب يعتقدون أن لكل شاعر شيطانا يوحي إليه المعاني"[13]. ويذهب الدكتور محمد غنيمي هلال إلى أنه "لم يُقصد ـ في بادئ الأمر ـ سوى الروح المِلهِمة... فكانت الشياطين ـ أو الجن ـ رمز لدى شعراء العرب إلى اعتدادهم بالإلهام"[14]. ويتضح مما سبق أن من التجارب ما يمكن ان يطالب الشاعر بمعايشتها قبل وصفها، وأخرى لا يشترط فيها ذلك.

وقديما قيل: "إن الكلام إذا خرج من القلب وقع في القلب، وإذا خرج من اللسان لم يتجاوز الأذان"[15].

وهذه المشاركة الوجدانية الدائمة مع شخصية ممدوحه نوع من التجارب العاطفية التي من شأنها ان تغذي الخواطر بفيض من الشعر الوجداني الحار. وبالإضافة إلى ذلك، كانت حياة الشعراء الحسانيين سلسلة متواصلة من الأحداث والوقائع غُنِي بتصوير كثير من تفاصيلها في قصائد المديح النبوي. وقد وقف محمد مندور طويلا بتفصيل أنواع التجارب البشرية التي يمكن أن تلهم المبدعين صناعة الشعر. وذكر منها:

التجربة الشخصية؛ وعرفها بأنها هي "تلك التي يسوقها للأديب أو الشاعر أحداق الحياة"[16]. وفي هذا الصنف من التجارب يشترط أن يعايش الشاعر نفسه ملابسات التجربة على وجه من الوجوه، فإذا انفعلت بها نفسه انفعالا صادقا، دفعه ذلك إلى التعبير عنها في صيغة إبداعية مؤثرة.

إن قراءة سريعة لأبعاد التجارب الإبداعية في قصائد الأمداح النبوية تُقنع القارئ بغَلَبة اللون الشعوري عليها. هذا ومن مظاهر التجربة الشعورية (السيكولوجية) في قصائد المديح النبوي المدروسة نذكر ما يلي:

1. الحب والإعجاب بشخصية الممدوح صلى الله عليه وسلم:

يعد الحب داعيا أصيلا من دواعي قول الشعر طسئل ذو الرمة: كيف تفعل إذا انقفل دونك الشعر؟ فقال: كيف ينقفل دوني وعندي مفاتحه؟ قيل له: وعنه سألناك ما هو؟ قال: الخلوة بذكر الأحباب"[17].

ولا شك أن الشعراء الحسانيين، قد أحسنوا استغلال مفاتيح الشعر التي تحدث عنها ذو الرمة، ولكن في الاتجاه الروحي الإيجابي، فقد تفَجَّرت في نفوسهم تجارب شعرية رائعة مصدرها "الخلوة بذكر الحبيب" ومصداق ذلك مخاطبتهم الحبيب المصطفى في قصائد (الطلع) عديدة.

حيث يقول أحد الشعراء[18]:

سَيِّدْ الْبَشرْ رُوحِي تَبْغِيهْ وَجهُ يَظاوَ كَالْقَمَرْ

وفي موضع آخر يقول الشاعر عن ممدوحه صلى الله عليه وسلم:[19]

مَحَبَّةْ ارَّسُولْ يَحَدْ فهَّامْ اَتْطَلَّعْ الشانْ واَتْزَيَّنْ السَّعْدْ

ولم يدَع الشاعر الحساني أمامَ الناس مجالا للشك في درجة محبته للنبي **صلى الله عليه وسلم**، وقد قال في هذا: [20]

ما يَبغِ رَسُولْ اللهِ مانِ مَنُّو مَاهُ مَيِّ

وأكد سيطرة عاطفة حل الممدوح على كيانه، عندما قال[21]:

رَسولْ اللهْ وَني بِيهْ ما هو فالُ مانِ سَاهِي

عنْ مدْحْ بي إلِّي نَبْغِيهْ يشفع في عند الله

أي أن قلبه لم يعد فيه مساحة تحتل حب الشهوات ومتاع الحياة الدنيا، من مال وأهل وولد، فقد احتل الحبيب كل جنبات قلبه، فصار يفديه بالروح، والأزواج، والأولاد، مع البقاء على عبوديته الخالصة لله، وخدمته السّنِية للرسول الأكرم عليه أفضل الصلاة والتسليم.

ولا غرو بعد ذلك أن يصرح الشاعر بأن دافعه إلى صناعة المديح هو محبة المصطفى، وذلك في قصائد عديدة (الطلع)اخترنا منها الأبيات التالية: [22]

جَيْتَكْ يَالنَّبِي طَامَعْ فِيكْ وَانَ لَلْجَنَّه متْمَنّ

ويقول الشاعر في طلعة أخرى: [23]

مَدْحْ النبِي فرْظْ اَعْلِيَّ وَاَللِّ غيْرُ تَارَكْ مَدْحُو

رَاجي كَانْ يَشفَعْ في يوم الصَّحايَفْ يَنفَتْحُو

لُوشَبِيهْ لَرَّسُولْ مَا خَالَ گْ اَشْبِيهْ وَاللهْ يَالرَّسُولْ مَا كِيفَتْ حَدْ[24]

ولا شك أن هذا الحب الصادق كان وقودا يُمِد قريحة الشاعر الحساني بأبيات من شعر المديح النبوي لوّنت خطابه الشعري بمَسْحة من الجمال والعَبَق الروحي؛ وما ذلك إلا لأن موضوع حبه ومديحه رمز روحي يجسد رسالة التوحيد من لدن آدم إلى انطلاق دعوة الإسلام.

أضف إلى ذلك أن الحبيب يسعى دوما إلى إرضاء حبيبه بأجمل ما يملك من جميل الأقوال والأفعال والتصرفات، ولذلك قال: [25]

مَنْ عَندْ آدَمْ بَعْدْ اصْطَفَاهْ مَنْ وَاحَدْ وَاحدْ يَتْگَدَّمْ

2. الوفاء بالواجبات والالتزامات:

كان الشاعر يرى أن مدح النبي **صلى الله عليه وسلم** واجب ديني يتحتم عليه أداؤه تعبدا، يقول الشاعر في إحدى قصائده: [26]

بِيهْ مدْحُ وَاجَبْ وَانگُوْلْ كَلْ مَقْصَدْ فِيهْ إحَلِّيهْ

إن هذا الحرص على أداء الواجب والوفاء بحقوق المصطفى وديونه في المدح، كان بمثابة ذخيرة حبة يستمد منها الشاعر طاقة شعرية فياضة تفسر غزارة إنتاجه في غرض المديح. ويتمثل ذلك في قول الشاعر سيدي ولد الخليل حمداني: [27]

مُحَمَّدْ مَاكيفُو مَوْجُودْ هُو بِيهْ اَنْطْلَسْ لَسرَاحْ

لَخلاَكَاتْ وَهُوَّ مَحْمُودْ مَدْحُ فِيهْ الْمَدَّاحَ بَاحُ

3. شكر النعم الإلهية:

من أقوى دوافع الشاعر الحساني إلى خوض فن المديح أداء الشكر لله على ما أولاه من النعم الظاهرة والباطنة، باعتبار أن النبي صلى الله عليه وسلم هو القناة التي انتقلت عبرها الخيرات والنعم التي حَظِي بها؛ حيث إن من أبرز النعم المشكورة نعمة الإسلام والتوفيق إلى مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم وخدمته، يقول: [28]

بِسْمِ اللهْ نَبْدَأ بكلاَمْ شَكْرَكْ يَالشَّفِيعْ اَفْلُمَمْ

وفي قول الشاعر مُحَمَّدْ سَالَمْ وَلْدْ بَابَا (الرَّيْ) [29]:

لاَهِي نَشكَرْ شَكْرْ ابْمَغْزَاهْ لَليّ شكْرُو مَاهوُ مَحْكُوْرْ

بِيهْ اَلي مولاَنَا وَسَّاهْ عَيْناً تُشْرَبُ لم تغورْ

ومن الأكيد أن شكر تلك النعم قد فجَّر في نفس الشاعر الحساني ينابيع شعرية ثَرَّة كان لها وزنها وقيمتها في خطابه الشعري. وقد عبر عن هذه الحقيقة في أكثر من مناسبة في قصائد الأمداح، يقول الشاعر محمد امبارك يارة: [30]

حَكْ اَني حَامَدْ لَلكَسَّامْ فَاَهْلْ التَّوْحِيدْ وذَاخَلْ سور

السَّنَّة واَزْرِيبَةْ لسْلاَمْ حَامَدْ للغَفُورْ الشكُورْ

وقول الشاعر:

اَحمدْنَ لَلَّهْ اَمُبِينْ اَهِيهْ اَمْجِ خَيْرْ اَعْلِينَ[31]

اَحْمَدْنَ لِلهْ الْقَيومْ لَخْلاَكَتْ مُحَمَّدْ عَجْلاَنَ[32]

ونستنتج مما سبق أن التجربة الشعورية تلعب دورا أساسيا في العمل الشعري، فكلما كانت صادقة وغير مُقتَعَلة كان تأثيرها حسنا في أداء الشاعر الحساني. ولَّد لدينا تجارب غنية ومتنوعة احتل فيها الشعور مكانة محورية. ففي قول الشَّاعِرْ مُحَمَّدْ سَالَمْ وَلْدْ بَابَا (الرَّيْ)::

بَالشعوُرْ اَسْكِي نَبْدَعْ فيهْ بَالشعُورْ وُبَلاَّ شعوُرْ[33]

خاتمة

وبهذا الخصوص فقد كشف هذا البحث عن ثراء الأدب الشعبي الحساني وقيامه على تقنيات أسلوبية متميزة تعبر عن حيوية الرؤية الإبداعية لدى الشعراء الحسانيين في غرض المديح النبوي، حيث توقفنا بوضوح وبتحليل معمق عند هذه البنى، ومن أبرزها: (التكثيف الدلالي، روعة التصوير الجمالي، التداخل الغرضي، جمال الهندسة والشكل الشعري، جلال المضمون، ثراء المعجم الشعري...).

بعد هذا التطواف حول ثمرات ملامح الإبداع الفني في الشعر الحساني وخاصة غرض المديح النبوي يمكن تلخيص نتائج البحث في النقط التالية:

الكشف عن طرف من معالم الجمال الفني، وعلى كافة مستوياته في قصائد الأمداح؛ ابتداء من الشعور والدوافع، ومرورا بجمال اللفظ والصياغة، وانتهاء بالمثل والأفكار التي يحملها هذا الإنتاج.

المساهمة في تفسير المعجم الشعري الذي يلفه غموض التجارب الذوقية. إبراز مدى أصالة الشاعر في أمداحه.

الهوامش:

1. قطب سيد، "النقد الأدبي أصوله ومناهجه"، ط 8 (القاهرة: دار الشروق 2003)، ص: 11.
2. هلال محمد غنيمي، مرجع سابق، ص: 347.
3. هلال محمد غنيمي، مرجع سابق، ص: 363.
4. المجالي جهاد، "التجربة الشعرية بين الصدق الفني وصدق الواقع"، مجلة جامعة أم القرى، العدد 27، جمادى الثانية، 1424 هـ.
5. شبرو عبد الكريم، "التجربة عند أبي القاسم عبد الله، (الجزائر: جامعة الحاج لخضر، رسالة مقدمة لنيل الماجستير، 2007/2006)، ص: 13.
6. هلال محمد غنيمي، مرجع سابق، ص: 364.
7. جامعة المدينة العالمية، مقررات دراسات في النقد الأدبي الحديث لمرحلة الماجستير، (ماليزيا 2010)، ص: 278.
8. مبشور محمد، مرجع سابق، ص: 12.
9. هلال محمد غنيمي، مرجع سابق، ص: 214.
10. المرجع السابق، ص: 214.
11. انظر مبشور محمد، مرجع سابق، ص: 7 . 18.
12. هلال محمد غنيمي، مرجع سابق، ص: 364 . 365.
13. زيدان جرجي، "تاريخ آداب اللغة العربية"، (القاهرة: دار الهلال)، ص:306.
14. هلال محمد غنيمي، مرجع سابق، ص: 340.
15. الشايب أحمد، "أصول النقد الأدبي" ط 8 (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1973)، ص: 191.
16. مبشور محمد، مرجع سابق، ص: 12.
17. القيرواني ابن رشيق، مرجع سابق، ص: 205.
18. انظر الطلعة رقم 42 من الملحق "المنجز النصي المديحي الحساني"، ص: 325.
19. انظر الطلعة رقم 16 من الملحق "المنجز النصي المديحي الحساني"، ص: 259.
20. انظر الطلعة رقم 55 من الملحق "المنجز النصي المديحي الحساني"، ص:343.
21. انظر الطلعة رقم 87 من "المنجز النصي المديحي الحساني"، ص .387
22. . انظر الطلعة رقم 55 من "الملحق "المنجز النصي المديحي الحساني"، ص:343.
23. انظر الطلعة رقم 85 من "الملحق "المنجز النصي المديحي الحساني"، ص:385.
24. انظر الطلعة رقم 16 من "الملحق "المنجز النصي المديحي الحساني"، ص: 254.

[25] انظر الطلعة رقم 3 من "المنجز النصي المديحي الحساني"، ص: 193.

[26] انظر الطلعة رقم 1 من "المنجز النصي المديحي الحساني"، ص: 188.

[27] انظر الطلعة رقم 5 من "المنجز النصي المديحي الحساني"، ص: 212.

[28] انظر الطلعة رقم 24 من "المنجز النصي المديحي الحساني"، ص: 302.

[29] انظر الطلعة رقم 8 من "المنجز النصي المديحي الحساني"، ص: 222.

[30] انظر الطلعة رقم 18 من "المنجز النصي المديحي الحساني"، ص: 266.

[31] . انظر الطلعة رقم 42 من "المنجز النصي المديحي الحساني"، ص: 325.

[32] انظر الطلعة رقم 65 من "المنجز النصي المديحي الحساني"، ص: 357.

[33] انظر الطلعة رقم 8 من "المنجز النصي المديحي الحساني"، ص: 222.